الحق الواضح المبين

في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي
رحمه الله

دار ابن القيم

الحق الواضح المبين

في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي
رحمه الله

دار ابن القيم

الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

دار ابن القيم للنشر والتوزيع

هاتف : ٨٢٦٨٣٤٣ ـ ص.ب : ١٨٦٥ ـ الدمام ـ رمز
بريدي : ٣١٩٨٢ ـ الدمام ـ جنوب الاستاد الرياضي ـ
المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيم

وبه نستعين * اللهم يسر وأعن يا كريم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أنّه الإلـه الحق الملك المبين * وأشهد أنّ محمداً عبده ورسولـه سيد المرسلين * اللهــم صلّ علــى محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد كنت وضعـت شرحـاً علـى توحيد الأنبياء والمرســلين من (الــكافية والشـافية) للمحقــق شمس الدين بــن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرت فيه من النقـول عن كتب المؤلف، فبدا لي أن ألخصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده، وأرجو الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه، موافقاً لمرضاته، نافعـاً لكاتبه وقارئه، إنه جواد كريم.

قال المصنف رحمه الله :

فصل في توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته وأدلته وبراهينه وآثاره الجميلة وثمراته الجزيلة، وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية والآفاقية والنفسية على صحته وكماله ووجوبه، وتعينه طريقاً للنجاة من شرور الدنيا والآخرة، ووسيلة إلى السعادة والفلاح، وهو الذي لا يحصل للقلوب زكاة ولا سرور ولا طمأنينة ولا إيمان صحيح ويقين إلّا به، وهو الأصل والأساس لجميع الأعمال، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق وأكملهم عقولاً وأزكاهم نفوساً وأجمعهم للمحاسن، وهم جميع الأنبياء والمرسلين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى وأصحابهم وأتباعهم، ونبذه وزهد فيه كل ملحد ومعطل،

ممن فسدت أديانهم ومرجت عقولهم واكتسبوا شر الأخلاق، وممّن خالفوا الأنبياء في طريقهم وتوحيدهم في الدليل والمدلول. فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق المزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وأدلته كل دليل عقلي صريح وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل، مؤيد بالشُّبهِ التي هي على جهل أصحابها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

(فاسمع إذاً توحيد رسل الله ثـ
ـم اجعله داخل كفةَ الميزان)
(مع هذه الأنواع وانظر أيها
أولى لدى الميزان بالرجحان)

وذلك أنّ الشيء يُعرف بضدِّه، والحق يتضح ويظهر نوره بمعرفته ومعرفة ما يضادُّه من الباطل، فإنّك إذا وزنت ـ بميزان العقل الحقيقي والفطر السليمة التي لم تتغير والبراهين الدالّة على الحقائق ـ توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد المعطلين، وجدتَ بينهما من الفروق ما لا يخفى على مَنْ له أدنى مسكة من عقل. وكيف يُوزن توحيد المعطلين الملحدين المشتمل على مسبّة رب العالمين ووصفه بكل صفة ناقصة، ونفي حقائق

أوصافه الكاملة والافتراء عليه وعلى كتبه ورسله، وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساوياً للخالق الكامل في أسمائه وصفاته من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المحتوي عى تعظيم رب العالمين وتقديسه وتمجيده، والثناء عليهبأكمل الثناء ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل، وعن مشاركة المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة وكماله العظيم، وكيف يُوزن توحيدٌ يرقى أصحابه إلى أعلى عليين، بتوحيد النفاة الذي ينزل بأهله إلى أسفل سافلين، أمْ كيف يُوزن توحيدٌ يجعل مَن اتصف بها هادياً مهدياً وطاهراً مرضياً، بتوحيدٍ يكسب أهله الضلال والإضلال وأرذل الخصال، ويُفضي بهم إلى الشقاء الأبدي.

(توحيدهم نوعان قوليٌّ وفعـ
ـليٌّ كلا نوعيه ذو برهان)

يعني أن توحيد الأنبياء يقسم قسمين أحدهما التوحيد الفعلي وهو إفراد الله بالمحبّة والذل وسائر العبادات والتقرّبات، ويأتي آحر الفصول، وهو المسمى (توحيد العبادة وتوحيد الإلاهية)، وسُمي توحيداً فعليًّا لأنّه متضمن لأفعال القلوب ولجوارح، فهو توحيد الله

بأفعال العبيد، وأنّه لا يتخذ له شريك ولا نديد. والثاني التوحيد القولي الاعتقادي، وهو المشتمل على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان والثناء على الله بتوحيده. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه (توحيد الربوبية). وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف بالتوحيد القولي فقال:

(فالأول القوليّ ذو نوعين أيـ
ـضاً في كتاب الله موجودان)
(إحداهما سلبٌ وذا نوعان أيـ
ـضاً فيه حقاً فيه مذكوران)
(سلبُ النقائص والعيوب جميعها
عنه هما نوعان معقولان)

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله وكذلك في السُّنَّة: أحدهما سلب أيْ نفي للنقائص والعيوب عن الله تعالى، والثاني إثبات صفات الكمال لله تعالى كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب لأنّه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود الأعظم من التوحيد إثبات صفات المدح والحمد، وكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص، فإنه متضمن

للمدح وللثناء على الله بضدّ ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين ذكرهما المصنف بقوله:

(سلب لمتصل ومنفصل هما
نوعان معروفان أما الثاني)
(سلب الشريك مع الظهير مع الشفيـ
ـع بدون إذن الخالق الديّان)
(وكذاك سلب الزوج والولد الذي
نسبوا إليه عابدو الصلبان)
(وكذاك نفي الكفو أيضاً والولي
لنا سوى الرحمن ذي الغفران)

يعني أن ما ينزّه الله عنه من النقص نوعان: سلب لمتصل، وضابطه نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من كل ما يضادّ الصفات الكاملة. وسلب لمنفصل، وضابطه تنزيه رب العالمين عن أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال وأن يفرد بالعبودية، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته وإلاهيته، فإنه متفرّد بالمُلك والقدرة والتدبير، فليس له في ذلك شريك وليس له أيضاً ظهير، أي معين يُعاونُه على خلق شيء من المخلوقات أو

تدبيرها، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوّتهم إلاَّ بالله، فالشريك والظهير منفيّان عنه مطلقاً، وأمّا الشفيع فإنه من عظمته وكمال مُلكه يُنزَّه عن أن يَشْفَع عنده أحدٌ إلّا بإذنه.

وأما الشفاعة عنده بإذنه من الأنبياء والأصفياء لأهل الجرائم، فإنها ثابتة كما أثبتها في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنّها دالّة على كمال رحمته وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة فيه. ومع هذا فلا يأذن لأحد أن يشفع إلّا فيمن رضي قوله وعمله، وهو من كان مخلصاً لله متابعاً لرسول الله، قال تعالى نافياً مشاركة أحد له في الأمور الثلاثة الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة بغير إذنه ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾(١). فقطع بهذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وبَيّنَ أنّ مَنْ كَانَ بهذا

(١) سورة سبأ الآية ٢٢.

الـوصف ـ لا مُلك له بوجـهٍ من الوجـوه، ولا شركة في المُلك، ولا مُعاونة ومُظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله ـ لا يستحق من العبادة مثقال ذرّة. وكذلك ينزّه الله عن اتخاذ الزوجة والولد الذي نسبَه إليه عبادُ الصلبان حيث قالوا إن المسيح ابن الله، وكذلك عباد الأوثان إذ قالوا الملائكة بنات الله، فكذّب الله كل من زعم أن له زوجة أو ولداً فقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[1]. وقال: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾[2]. وقـال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات النافية عن الله أن يتخذَ صاحبةً أو ولداً أو شريكاً لأنّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه بوجهٍ مِنَ الوجُوه، ولأنّه المالك لكل شيءً وكل الخلق مملوكون له فقراء إليه، فمن كان كذلك فكيف يتخذ الصاحِبةَ والولدَ، تعالى الله عما يقول

(١) سورة الإخلاص.

(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠١.

الظالمون علواً كبيراً، ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾(١).

وقول المصنف: «نسبوا إليه عابدو الصلبان» هذا على لغة من يُلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر مطلقاً، فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان. قوله: «وكذاك نفي الكفو أيضاً» أي يجب ويتعين أن ينفى أن يكون أحدٌ مكافئاً لله في كماله وحقوقه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(٢)، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾(٣)، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾(٤)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٥)، فليس أحدٌ مكافئاً لله أي مساوياً له في الأسماء والصفات ولا في الأفعال، لأنه

---

(١) سورة مريم الآيات ٨٨-٩٣.
(٢) سورة الإخلاص الآية ٤.
(٣) سورة مريم الآية ٦٥.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢.
(٥) سورة الشورى الآية ١١.

الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إنْ لم يكمله ربه بكمال المخلوق اللائق به، فليس لأحد صفات تقارب صفات الله ولا أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلاً حتى يُعينَهُ الله علَى أفعالِهِ، ولهذا كانت أفعالُ العباد تابعةً لمشيئة الله مع وقوعها بإرادتهم وقدرتهم، فخالِقُ القُدرة والإرادة خالق ما يكون بهما، قال تعالى في بيان الأصلين: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(1)

ومِمَّا يُنفى عن الله ويُنزَّه عنه، أنّه ليس لنا وليٌّ سواهُ يجلب لنَا المنافع ويدفع عنَّا المضار، فليس لنا وليٌّ سواه، فإنّه تولّى خلقنا ورزقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة. فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير الشاملة للبرِّ والفاجر، قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾(2) ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾(3)، والولاية الخاصة ولايته للمؤمنين المتّقين يُخرِجُهُم بِهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الجهْلِ والكُفْرِ والمعاصي إلى نُورِ العِلمِ والإيمَانِ والطَّاعَةِ، قَالَ تَعَالَى:

(1) سورة التكوير الآيات ٢٨-٢٩.
(2) سورة السجدة الآية ٤.
(3) سورة الشورى الآية ٤٤.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2]. وكذلك لم يتّخذ من خلقه وليًّا من الذُّل لِكَمَالَ اقتداره وغناه وعظمته، وإنّما يتَّخذُ منهم أولياء رحمةً بهم وإحساناً إليهم يُحبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ، والحَاصِلُ أنّهُ ليس أحَدٌ مساوياً لله تعالى أو مماثلاً أو مُعيناً أو وزيراً أو مُحْتَاجاً إليه بوجهٍ من الوجوه.

(والأول التنـزيه للرحمـن عن
وصف العيوب وكل ذي نقصان)
(كالمـوت والإعياء والتعـب الذي
ينفـي اقتـدار الخالـق الديّان)
(والنـوم والسِّنـة التـي هي أصله
وعـزوب شيء عنـه في الأكوان)

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله، وهـو التنـزيه لله عن أن يتصف بعيبٍ أو نَقْصٍ مُنَاقضٍ لكمال أوصَافِه، فهو موصوفٌ بكل صفة كمال منزّه عن

(١) سورة يونس الآية ٦٢.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٧.

ضدّها وعن نقصها، فهو موصوفٌ بكمال الحياة وبكمال القدرة، منزه عما يضادّها من المـوت والإعياء والتعب واللغوب، فإنّـه لو كان موصوفـاً بشـيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[1]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[2]. ومنـزّه أيضاً عما يضادّ الحياة والقيومية من النوم والنعاس وهـو السِنَة، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[3]. وقال النبي ﷺ: « إن الله لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينامَ »، وكذلك هو موصوفٌ بالعِلْم المُحيطِ بِكلِّ شيءٍ يعلم مَا في السماوات والأرض، ويَعْلَمُ مَا يُسِرُ العِبَادُ وما يُعلِنون، منزّهٌ عما يُنافي ذلك، فلا يعزب ولا يغيب عن علمـه وبصـره وسمعـه شيءٌ في السمـاوات والأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

(١) سورة الفرقان الآية ٥٨.
(٢) سورة ق الآية ٣٨.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٤) سورة آل عمران الآية ٥.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾[1].

(وكذلك العبث الذي تنفيه حكمـ
ـمته وحمد الله ذي الاتقان)

(وكذاك ترك الخلق إهمالاً سدى
لا يبعثون إلى معاد ثان)

(كلا ولا أمر ولا نهي عليـ
ـهم من إلهٍ قادر ديّان)

أي وكذلك يجب تنزيه الله عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق شيئاً عبثاً ولا باطلاً، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة عظيمة لأنّه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المصنوعات وإحكامها وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمّه، وهذا مُشَاهَدٌ في خلقه وشرعه، ومن تمام حكمته أنّه لَمْ يخلق خلقَه سدى لاَ يُؤْمَرُون ولا يُنهون ولا يُثابُون ولا يُعاقَبون على تلك الأوامر والنّواهي، فالحكمة والحمد دالاّن على أنّه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية ويبتليهم بالأوامر والنواهي. ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دارٍ تجري

---

(١) سورة سبأ الآية ٣.

فيها عليهم أحكامُ الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾(٢). فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه هملاً مهملاً ولا يُنهى ولا يُثاب ولا يُعاقب.

(وكذاك ظلم عباده وهو الغنـ
ـيّ فما له والظلم للإنسان)

أي وكذلك ينزّه الباري عن الظلم للعباد بأن يزيدَ في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم أو يُعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإنَّ الظلمَ لا يفعلُه إلَّا مَنْ هُو مُحتاج إليه أو مَن هو موصوف بالجور، وأما الله الغني عن خلقه من جميع الوجوه، الحكم العدل الحميد، فما له وظلم العباد، قال

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

(٢) سورة القيامة الآيات ٣٦-٤٠.

الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[2] ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[3]. وقال على لسان نبيِّه: « يَا عِبَادي إنّي حرّمتُ الظلم على نفسي وجعلتُهُ بينكم محرَّماً فلاَ تظَالموا » رواه مسلم.

(وكذاك غفلته تعالى وهو عـ
ـلام الغيوب فظاهر البطلان)
(وكذلك النسيان جلّ إِلَهُنَا
لا يعتريه قطّ من نسيان)
(وكذاك حاجته إلى طعم ورزق
وهو رزّاق بلا حسبان)

أي كَذَلِكَ يُنزَّه عن الغفلة والنسيان بوجهٍ من الوجوه لأنَّه عالِم الغيب والشهادة، وعلمه محيط لا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها، قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ

(1) سورة فصلت الآية ٤٦.
(2) سورة النساء الآية ٤٠.
(3) سورة طه الآية ١١٢.

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1] وكذلك ينزّه عن احتياجه إلى الطعام والرزق فإنّه تعالى هو الرزّاق لجميع الخلق الغني عنهم وكلهم فقراء إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2] ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[3]

(هـذا وثانـي نوعي السلــب الذي
هــو أول الأنــواع في الأوزان)

(تنزيه أوصاف الكمـال له عن التـ
ـشـبيه والتمثيل والنكران)

(لسنـا نشبــه وصفــه بصفاتنا
إن المشبّــه عابــد الأوثان)

(كلا ولا نخليه من أوصافه
إن المعطّــل عابــد البهتان)

(مــن مثّــل الله العــظيم بخلقه
فهــو النسيب لمشــرك نصراني)

---

(١) سورة طه الآية ٥٢.

(٢) سورة الذاريات الآيات ٥٦-٥٨.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤.

(أو عطــل الرحمــن من أوصافه
فهــو الكفــور وليس ذا إيمان)

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزه الله عنه الذي هو أول النوعين الثبوتي والسلبي في الميزان أي في هذه القصيدة، وتقدم النوع الأول من قسمي السلب وهو السلــب المتصــل والمنفصــل المتضمــن تنزيهــه عن النقائص والعيوب. وعن مشاركة أحدٍ من الخلق له في صفاته الخاصة به وعما يناقض كماله، وهذا النوع يرجع إلى حفظ كمالــه ونعــوت جلالــه عن تشبيههــا بصفــات الخلق، فلا يقال علــم الله أو قدرة الله كعلــم الخلــق أو قدرتهم، ولا رحمتــه كرحمــة خلقــه، فإنَّ ذلك تشــبيهٌ لله بالخلق، ومن قال بهذا فإنَّه يمثل بفكره صنماً ووثناً يعبده، كما فعــل النصــارى بالمسيح ابــن مريم جعلــوه إلههــم ومعبودهم، فالمشبِّه نسيب أي مشابه للنصراني، وأما ربّ العالمين فهو فوق ما يظنون وأعلى ممَّا يتوهمون، فإنَّه كما أنَّ ذاتــه لا تشبههــا ذوات المخلوقــين، فصفاتــه لا تشبههــا صفاتهــم. وينــزَّه عن تعــطيل صفاتــه ونفيهــا كما فعلتــه الجهميَّة ومن تبعهم من المتكلمين، فإنَّ ذلك ردّ لنصوص الكتاب والسُّنَّة الدالَّــة على اتصافــه بصفــات الــكمال، فيتوهَّم المعطــل أنَّ ظاهــر النصــوص يدل على التشــبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبداً للعدم المحض

والنفي الصرف، فإنَّه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، وردّ لما جاءُوا به. ولهذا قال المصنف: «فهو الكفور وليس ذا إيمان» وسيأتي إنْ شاء الله كلام المصنف في الكلام على الجهمية وغيرهم من أهل البدع.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمّن موحد، ومشبّه، ومعطّل. فالمؤمن الموحّد يصفُ الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال، على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله. والمشبّه هو الذي يشبّه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرّض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غيرُ الله. والمعطّل هو من نفى شيئاً من صفات الله. وكل من المعطّل والمشبّه قد حرّم الوصول إلى معرفة الله على وجهها، وابتلي بالتكلّف والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنّه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلّت عليه العقول والفطر التي لم يطرأ عليها التغيّر، فلا معقول لديهم ولا منقول. وهدى الله أهل السنّة والجماعة لاتباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبّر ما عليه هذه الطوائف في المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأل الله الهداية لأقوم الطرق.

فصل في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف النوعين وأجلّهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنّف في هذا البيت:

(هـذا ومـن توحيدهـم إثبـاتُ أو
صـاف الكمـال لربّنـا الرَّحمن)

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يعترفوا ويثبتوا لله كل صفة للرَّحمن وردت في الكتب الإلهية، وثبتت في النصوص النبوية، يتعرّفون معناها ويعقلونه بقلوبهم، ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها، ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من الأحوال القلبية والمعارف الربّانية. فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبةً لله وتعظيماً له وتقديساً، وأوصاف العزّ والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربِّها، وأوصاف الرحمة والبرّ والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعاً فيه وفي فضله

وإحسانه وجوده وامتنانه، وأوصاف العلم والإحاطة تُوجب للعبد مراقبة ربّه في جميع حركاته وسكناته، ومجموع الصفات المتنوعة الدالّة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبةً لله وشوقاً إليه، وتوجب له التألّه والتعبّد والتقرّب من العبد إلى ربّه بأقواله وأفعاله، بظاهره وباطنه، بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه. وبهذه المعاني الجليلة وتحقيقها يُرجى للعبد أن يدخل في قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة» متفق عليه. فإحصاؤها فهمها وعقلها والاعتراف بها والتعبّد لله بها. ثم شرع يفصّلها فقال:

(كعلوّه سبحانه فوق السمـ
ـاوات العلى بل فوق كل مكان)

(فهو العليُّ بذاته سبحانه
إذ يستحيل خلاف ذا ببيان)

(وهو الذي حقاً على العرش استوى
قد قام بالتدبير للأكوان)

أما علوّ الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها، فقد دلّ عليهما العقل والفطرة مع النصوص الكثيرة المتواترة، فإنّه علا بذاته فوق مخلوقاته، ويستحيل أن لا يكون عليًّا؛ فإنّه يمتنع أن يكون حالاً فيّ المخلوقات،

فيتعيّن أن يكون فوقها مبايناً لها، وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل: الكتاب والسنّة. قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[1]. في عدة مواضع وأخبر أنّه العليّ الأعلى، وأنّه فوق عباده في مواضع كثيرة.

وقد سُئِلَ الإمام مالك رحمه الله عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب» وهكذا يُجاب عن جميع ما أخبر الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله، فكما أنه تثبت لله صفاته العظيمة على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء على العرش من جملة أوصافه، فاستوى على العرش واحتوى على الملك يدبر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، كما جمع بين الأمرين في قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[2].

(حيٌّ مريدٌ قادرٌ مُتكلم
ذُو رحمةٍ وإرادةٍ وحنان)

أي هو تعالى حيٌّ حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، ومن كمال حياته أنّه كامل القدرة نافذ الإرادة

---

(١) سورة طه الآية ٥.

(٢) سورة يونس الآية ٣.

والمشيئة. وجمع المؤلّف بين القدرة والإرادة وهي المشيئة، لأنّ جميع صفات الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء على العرش ونزوله إلى سماء الدنيا على ما وردت به النصوص، والمجيء والإتيان والقول ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه كالإحياء والإماتة والخلق وأنواع التدبيرات كلها تصدر عن القدرة والإرادة، فما وُجد عُلم أنّ الله أراده، وما لم يُوجد عُلِمَ أن الله لَمْ يُرِدْهُ، فما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكُنْ ولا حول ولا قوة لأحد إلّا به لشمول إرادته وكمال قدرته. وقوله «متكلم» أي لم يزل ولا يزال بالكلام موصوفاً، فيكلم بما أراد كيف أراد وحيث أراد ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1] وسيأتي إنْ شَاءَ الله القول في الكلام. «ذو رحمة وحنان» أي قد اتصف بالرحمة وعمّ خلقه بالنعم وشملهم بالكرم والبر والحنان والجود والامتنان.

(هو أوّل هو آخر هو ظاهر
هو باطن هي أربع بوزان)
(ما قبله شيء كذا ما بعده
شيء تعالى الله ذو السلطان)

---
(١) سورة الأنعام الآية ١١٥.

(مــا فوقــه شيء كذا ما دونه
شـــيء وذا تفسير ذي البرهان)
(فانظــر إلــى تفسيره بتدبر
وتبصّـرٍ وتعقّـلٍ لمعان)
(وانظـر إلـى ما فيه من أنــواع معـ
ـرفــة لخالقنــا العــظيم الشان)

أي هذا التفسير لهذه الأسماء الأربعـة المبـاركة قد فسّرهـا به النبـيﷺ بقولـه: « أنـــت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعـدك شيء، وأنـت الظاهـر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء » إلى آخر الحديث، ففسّر كل اسم بمعناه العظيم، ونفى عنه ما يُضاده ويُنافيه. فتدبّر هذه المعاني الجليلة الدالّة على تفرّد الرب العظيم بالكمال المطلـق والإحاطـة المطلقـة الزمانية في قوله: « الأوّل والآخر » والمكانية في « الظاهر والباطن ». فالأوّل يدل على أنّ كل ما سواه حادث كائن بعد أنْ لم يكن، ويُوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالى. والآخر يدل على أنّه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتأهلها ورغبتهـا ورهبتهـا وجميع مطالبهـا، والظاهر يدل على عظمة صفاتـه واضمحـلال كل شيء

عند عظمته من ذوات وصفات وعلى علوّه، والباطن يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على كمال قربه ودنوّه. ولا يتنافى الظاهر والباطن لأنّ الله ليس كمثله شيء في كل النعوت.

(وهو العليُّ فكل أنواع العـ
ـلوّ له فثابتة بلا نكران)

في القرآن من أسمائه الحسنى (**العليّ الأعلى**) وذلك دالّ على أن جميع معاني العلوّ ثابتة لله من كل وجه، فله علوّ الذات فإنّه فوق المخلوقات، وعلى العرش استوى أي علا وارتفع. وله علوّ القدر وهو علوّ صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1]. وبذلك يُعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته. وله علوّ القهر، فإنّه الواحد القهار الذي قهر بعزّته وعلوّه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأْ لم يكنْ، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأْهُ الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته

(١) سورة طه الآية ١١٠.

لم يمنعوه، وذلك لكمال آقتداره ونفوذ مشيئته وشدة آفتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

(وهو العظيم بكل معنى يوجب التـ
ـعظيم لا يحصيه من إنسان)

يُريد أنّ الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه كما ينبغي له ولا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يُثني عليه عباده.

واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان: أحدهما أنّه موصوفٌ بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة، ومن عظمته أن السماوات والأرض في كفٍّ الرحمن أصغر من الخردلة كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾(١). وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ

(١) سورة الزمر الآية ٦٧.

أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾(١) . وقال تعالى وهو العلي العظيم: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾(٢) الآية. وفي الصحيح عنه ﷺ «إنَّ الله يقول الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما عذَّبته» فلله تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يُقدّر قدرهما ولا يُبلغ كنههما. النوع الثاني من معاني عظمته تعالى أنّه لا يستحق أحد من الخلق أن يُعظَّم كما يُعظَّم الله، فيستحق جلّ جلاله من عباده أن يعظِّموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذلّ له والانكسار له والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه أن يُتّقى حقّ تقاته، فيُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى ويُشكر فلا يكفر. ومن تعظيمه تعظيم ما حرّمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾(٣)، و ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾(٤). ومن تعظيمه أن

---

(١) سورة فاطر الآية ٤١.
(٢) سورة الشورى الآية ٥.
(٣) سورة الحج الآية ٣٢.
(٤) سورة الحج الآية ٣٠.

لا يُعترض على شيء مما خلقه أو شرعه.

(وهو الجليل فكل أوصاف الجلا
ل له محقّقة بلا بطلان)
(وهو الجميل على الحقيقة كيف لا
وجمال سائر هذه الأكوان)
(من بعض آثار الجميل فربّها
أولى وأجدر عند ذي العرفان)
(فجماله بالذات والأوصاف والأفعـ
ـال والأسماء بالبرهان)
(لا شيء يشبه ذاته وصفاته
سبحانه عن إفك ذي بهتان)

يعني أنّ الله تعالى هو (الجليل) الذي له أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء ثابتة محقّقة لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو (الجميل) بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن مخلوقاً أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى أن أهل الجنّة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللّذات والسرور والأفراح التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربّهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودّوا أنْ لو تدوم هذه الحال، واكتسبوا من جماله ونوره جمالاً إلى

جمالهم، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربِّهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحاً تكاد تطير له القلوب. وكذلك هو الجميل في أسمائه، فإنّها كلها حسنى بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾(1) وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾(2) فكلّها دالّة على غاية الحمد والمجد والكمال، لا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره. وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإنّ أوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعمّها وأكثرها تعلقاً، خصوصاً أوصاف الرحمة والبرّ والكرم والجود. وكذلك أفعاله كلها جميلة، فإنّها دائرة بين أفعال البرّ والاحسان التي يحمد عليها ويُثنى عليه ويشكر، وبين أفعال العدل التي يُحمد عليها لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا سدى ولا ظلم، كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(3) فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت

---

(1) سورة الأعراف الآية ١٨٠.

(2) سورة مريم الآية ٦٥.

(3) سورة هود الآية ٥٦.

أحكامه من أحسن الأحكام، وصنعه وخلقه أحسن خلق وصنع: أتقن ما صنعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1]، وأحسن ما خلقه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[2] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3]

ثم استدل المصنف بدليل عقلي على جمال الباري، وأنّ الأكوان محتوية على أصناف الجمال، وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاها الحسن، فهو أولى منها لأن مُعطي الجمال أحقّ بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، خصوصاً ما يعطيه المولى لأهل الجنّة من الجمال المفرط في رجالهم ونسائهم، فلو بدا كفّ واحدة من الحور العين إلى الدنيا، لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحقّ منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء. فهذا دليل عقلي واضح مسلم المقدمات على هذه المسألة العظيمة وعلى غيرها من صفاته، قال

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨.

(٢) سورة السجدة الآية ٧.

(٣) سورة المائدة الآية ٥٠.

تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] فكلّ ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصاً، فإنّ معطيه وهو الله أحقٌ به من المعطىٰ بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال أحقّ منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: «لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» فسبحان الله وتقدّس عما يقوله الظالمون النافون لكماله علوًّا كبيراً، وحسبهم مقتاً وخساراً أنّهم حُرموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل لأن تمام التعبّد لله هو التعبّد بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبّد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته وإجلاله، والتعبّد باسمه الجميل يقتضي محبّته والتألّه له، وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث يسيح القلب في رياض معرفته وميادين جماله، ويبتهج بما يحصل له من آثار جماله وكماله فإنّ الله ذو الجلال والإكرام.

---

(1) سورة النحل الآية ٦٠.

(وهــو المجيدُ صفاتــه أوصــاف
تعظيم فشأن الـوصف أعظـم شان)

(المجيد) الـذي له المجـد العـظيم، والمجــد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرّحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته.

(وهــو الســميع يرى ويسمـع كل ما
فـي الــكون من سرٍّ ومــن إعلان)

(ولــكل صوت منــه سمــع حاضر
فالســرّ والأعــلان مستويان)

(والسمـع منـه واسـع الأصـوات لا
يخفــى عليه بعيدهــا والدّاني)

(وهو البصير يرى دبيب النملة الســ
ــوداء تحــت الصخــر والصوّان)

(ويرى مجاري القـوت في أعضائها
ويرى نياطَ عروقهــا بعَيانِ)

(ويرى خيانــات العيون بلحظها
ويرى كذاك تقلُّــب الأجفان)

هـذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين « السميع ، البصير » وكثيراً ما يقرن الله بينهما مثل قوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[1]. فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرَّها وعلنها وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد والسرّ والعلانية عنده سواء ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[2]. ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[3]. قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة، وإنّه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾[4] الآية.

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٤.

(٢) سورة الرعد الآية ١٠.

(٣) سورة المجادلة الآية ١.

(٤) سورة المجادلة الآية ١.

وسمعه تعالى نوعان: أحدهما سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة الخفيّة والجليّة، وإحاطته التامة بها. الثاني سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[1]. وقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي استجاب.

ثم قال المصنف «وهو البصير» أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقّتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك. فسبحان من تحيّرت العقول في عظمة وسعة متعلقات صفاته وكمال عظمته ولطفه وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب، ويرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان وحركات الجنان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٩.

ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[2] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3]، أي مطَّلع ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات.

(وهو العليم أحاط علماً بالذي
في الكون من سرّ ومن إعلان)
(وبكل شيء علمه سبحانه
فهو المحيط وليس ذا نسيان)
(وكذاك يعلم ما يكون غداً وما
قد كان والموجود في ذا الآن)
(وكذاك أمر لم يكن لو كان كيـ
ـف يكون ذا إمكان)

هذا تفسير لاسمه (العليم) بأحسن تفسير وأجمعه، فهو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلّا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتّب على وجودها لو وُجدت. كما قال

(١) سورة الشعراء الآيات ٢١٨-٢٢٠.
(٢) سورة غافر الآية ١٩.
(٣) سورة البروج الآية ٩.

تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١). وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢). فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وُجدت على وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها ما وجد منها وما لم يوجد مما لم تقتضِ الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن، والجليّ والخفيّ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣) والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً لا يمكن حصرها وإحصاؤها، وأنّه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنّه لا يغفل ولا ينسى، وأنّ علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت، كما أن قُدَرهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها

(١) سورة الأنبياء الاية ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون الاية ٩١.
(٣) سورة الأنفال الاية ٧٥.

بوجهٍ من الوجوه، فهو الذي علّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين. وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي، وما فيه من المخلوقات ذواتها وأوصافها وأفعالها وجميع أمورها، فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعد ما يُميتهم وبعد ما يُحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار.

فصل

(وهـو الحميد فكلّ حمـد واقع
أو كان مفروضـاً مدى الأزمان)
(مـلأ الوجـود جميعـه ونظيره
مـن غير ما عدّ ولا حسبان)
(هـو أهلـه سبحانـه وبحمده
كل المحامـد وصف ذي الإحسان)

هـذا تفسـير لاسمـه (الحميد) فذكر أنـه حميد من وجهين:

أحدهما أنّ جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهـل السمـاوات والأرض الأوّلين منهـم والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكل حمـد لم يقـع منهـم بل كان مفروضـاً ومقـدّراً حيثمـا تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات، حمداً يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير

عد ولا إحصاءٍ، فإنّ الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة: منها أنّ الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدى عليهم النعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيويّة، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلاّ هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

الوجه الثاني أنه يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كلّ صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء، فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه وعلى شرعه وعلى أحكامه القدريّة وأحكامه الشرعيّة وأحكام الجزاء في الأولى والآخرة، وتفاصيل حمده وما يُحمد عليه لا تُحيط بها الأفكار ولا تُحصيها الأقلام.

فصل

(وهـو المكلـم عبـده موسـى بتكـ
ـليم الخطـاب وقبلـه الأبَوَان)

(كلماتـه جلـت عن الإحصـاء والتـ
ـعداد بل عن حصـر ذي الحسبان)

(لو أن أشجار البـلاد جميعهـا الأقـ
ـلام تكتبهـا بكل بنان)

(والبحـر تلقـى فيه سبعـة أبحر
لكتابـة الكلمـات كل زمان)

(نفـدت ولـم تنفـد بهـا كلماته
ليس الـكلام من الإلـه بفان)

يعني أنه تبارك وتعالى متكلـم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام معروفاً موصوفاً، وكلامه تعالى من صفاته الذاتيّة الفعليّة غير مخلوق كسائر صفات

أفعاله، قال الله تعالى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[1]. وذكر كلامه للأبوين في عدة مواضع من كتابه قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[3]. فالكلام متعلقاته عامة عظيمة، يتكلّم تعالى بما يتعلّق بذاته وصفاته وأفعاله، وبما يتعلّق بجميع مخلوقاته، بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، وكلماته كلها عدل وصدق: صدق في الأخبار، ومَنْ أصدق من الله قيلا، وعدل في الأوامر والنواهي، والقرآن العظيم من أجلّ كلامه وأشرفه وأعلاه، وكذلك الكتب التي أنزلها على رسله، ويكلّم عباده، وتكليمه إيَّاهم نوعان: نوعٌ بلا واسطة كما كلَّم موسى بن عمران ﷺ والأبوين، وكما خاطب محمداً ﷺ ليلة أُسري به إليه، وكما يُخاطب أهل الموقف وأهل الجنَّة في الجنَّة حين يرونه ويكلِّمهم

---

(1) سورة النساء الآية ١٦٤.

(2) سورة لقمان الآية ٢٧.

(3) سورة الكهف الآية ١٠٩.

ويكلِّمونه. والنوع الثاني تكليمه لعباده بواسطة، إمَّا بالوحي الخاص للأنبياء، وإمَّا بإرساله إليهم رسولاً يكلِّمهم عن أمره بما يشاء. وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ ﴾[1].

واعلم أنّ صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلّقها وقيامها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلّقها بقدرته ومشيئته، فإذا كان من المعلوم أنّ الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة، علم أنّه لم يزل ولا يزال متكلماً إذا شاء، لأنّ الكلام من أعظم صفات الكمال التي يستحيل نفيها عن الله تعالى، وكلماته غير متناهية فلا تفنى ولا تبيد، ولم يُقدّر اللهَ حق قدره مَن زعم أنّ كلامه مخلوقٌ في جملة المخلوقات التي تنتهي، وتصور هذا القول كافٍ في ردّه.

(وهو القدير فليس يعجزه إذا
ما رام شيئاً قط ذو سلطان)
(وهو القويّ له القوى جمعاً تعـ
ـالى الله ذو الأكوان والسلطان)

(١) سورة الشورى الآية ٥١.

(وهـو العـزيز فلن يُرام جنابه
أنَّـى يرام جنـاب ذي السلطان)
(وهـو العـزيز القاهـر الغـلاب لم
يغلبـه شيء هذه صفتان)
(وهـو العـزيز بقـوة هي وصفه
فالعـز حينئـذ ثلاث معان)
(وهـي التـي كملـت له سبحانه
مـن كل وجـه عادم النقصان)

هذه الأسماء الثلاثة العظيمة (القدير القوي العزيز) معانيها متقاربة، فهو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزّة﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾[1] فمعاني العزّة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم: عزّة القوة الدالّ عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفه العظيم الذي لا تُنْسَب إليه قوة المخلوقات وإنْ عَظُمَتْ. وعزة الامتناع فإنّه هو الغني بذاته، فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضرّه فيضرّونه، ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضارّ النافع المعطي المانع. وعزّة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرّك منها متحرّك ولا

(١) سورة يونس الآية ٦٥.

يتصرّف متصرّف إلاّ بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به. فمن قوته واقتداره أنّه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنّه خلق الخلق ثم يُميتهم ثم يُحييهم ثم إليه يُرجعون ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾(١) ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(٢) ومن آثار قدرته أنّك ترى الأرض هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذّبين والكُفّار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنّه لم يغنِ عنهم كيدهم ومكرهم ولا أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لمّا جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب، وخصوصاً في هذه الأوقات، فإنّ هذه القوة الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أنّ قواهم وقُدَرهم ومخترعاتهم لم تغنِ عنهم شيئاً في صدّ ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلِكة، مع بذل جدّهم واجتهادهم في

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٨.

(٢) سورة الروم الآية ٢٧.

توقي ذلك، ولكنّ أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي.

ومن تمام عزته وقدرته وشمولهما أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضاً أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقاً وتقديراً وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإنّ الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(1).

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أولياءه، على قلّة عددهم وعُددهم على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العَدد والعُدة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(2) ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى.

(وهو الغني بذاته فغناه ذا
تي له كالجود والإحسان)

(1) سورة الصافات الآية ٩٦.

(2) سورة البقرة الآية ٢٤٩.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1]. فهو تعالى (الغني) الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً فإن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا محسناً جواداً براً رحيماً كريماً، والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها وفي بقائها وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه، ومن سعة غناه أن خزائن السماوات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده سحاء الليل والنهار، وخيره على الخلق مدرار.

ومن كمال غناه وكرمه أنّه يأمر عباده بدعائه ويعدهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم، ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلاً منهم ما سأله وما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه مثقال ذرّة. ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات

---

(١) سورة فاطر الآية ١٥.

والخيرات المتواصلات، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كمال غناه أنّه لم يتخذ صاحباً ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ولا وليًّا من الذلّ، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته.

(وهو الحكيم وذاك من أوصافه
نوعان أيضاً ما هما عدمان)
(حكم وأحكام فكل منهما نوعـ
ـان أيضاً ثابتا البُرهان)
(والحكم شرعيّ وكوني ولا يتـ
ـلازمان وما هما سيان)
(بل ذاك يوجد دون هذا مفرداً
والعكسِ أيضاً ثم يجتمعان)
(لن يخلوَ المربوبُ من إحداهما
أو منهما بل ليس ينتفيان)
(لكنما الشرعي محبوب له
أبداً ولن يخلو من الأكوان)
(هو أمره الديني جاءت رسله
بقيامه في سائر الأزمان)

(لكنما الكوني فهو قضاؤه
في خلقه بالعدل والإحسان)
(هو كله حق وعدل ذو رضًى
والشأن في المقضيّ كل الشان)
(فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ
ـمقضيَّ حين يكون بالعصيان)
(فالله يرضى بالقضاء ويسخط الـ
ـمقضَيَّ ما الأمران متحدان)
(فقضاؤه صفة به قامت وما الـ
ـمقضيُّ إلاّ صنعة الرحمن)
(هذا البيان يزيل لبساً طالما
هلكت عليه الناس كل زمان)
(ويحلّ ما قد عقدوا بأصولهم
وبحوثهم، فافهمه فهم بيان)
(من وافق الكونيَّ وافق سخطه
إن لم يوافق طاعة الديان)
(فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا
ت الحمد مع أجر ومع رضوان)
(وموافق الديني لا يعدوه أجـ
ـر بل له عند الصواب اثنان)

فصل

(والحكمــة العليا علــى نوعين أيـ
ـضـاً حصـلا بقواطـع البرهان)
(إحداهمـا في خلقـه سبحانه
نوعـان أيضـاً ليس يفترقان)
(إحــكام هذا الخلــق إذ إيجاده
فــي غاية الإحــكام والإتقان)
(وصــدوره من أجـل غايات له
ولــه عليهـا حمـد كل لسان)
(والحكمـة الأخـرى فحكمـة شرعه
أيضـاً وفيهـا ذانـك الوصفان)
(غاياتهـا اللائـي حمـدن وكونها
فــي غاية الإتقـان والإحسان)

أي هو تعالى (الحكيم) الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع

العلم والاطلاع على مبادىء الأمور وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان: أحدهما الحكمة في خلقه، فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته. فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والاتقان لم يقدروا، وأنَّى لهم القدرة على شيء من ذلك وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والاتقان. وهذا أمر معلوم قطعاً بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر، وقد تحدى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرّروا النظر والتأمل هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لا بد أن ترجع

الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني الحكمة في شرعه وأمره، فإنّه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجلّ من هذا، وأيّ فضل وكرم أعظم من هذا، فإنّ معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجلّ الفضائل لمن يمنّ الله عليه بها. وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنّها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم، فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللّذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء وخلقت الجنة والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً ويقيناً وإيماناً وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وهدى ورشد. وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين

والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرّته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الاسلامي أنّه كما أنّه هو الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلاّ بالدين الحقّ الذي جاء به محمدﷺ ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإنّ أُمّة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويرشد إليه، كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح، ولمّا انحرفوا عنه وتركوا كثيراً من هداه ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية، انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم. وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغاً هائلاً، ولكن لمّا كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله، كان ضررها أعظم من نفعها وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم. ولهذا كان من حكمته تعالى أنّ ما جاء به محمدﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه وصدق ما جاء به، لكونه محكماً كاملاً لا يحصل إلا به.

وبالجملة فالحكيم متعلقاته المخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع أن القدر متعلّق بما أوجده وكوّنه وقدّره، وأنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكُنْ. وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه. والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبّه الله ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضادّ ذلك فقد وجد فيه الحكم القدري، فإنّ ما فعله واقع بقضاء الله وقدره ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه. فالخير والشر والطاعات والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع الحكم الشرعي ومتعلّقه. والله أعلم.

(وهو الحيّ فليس يفضح عبده
عند التجاهر منه بالعصيان)
(لكنه يلقي عليه ستره
فهو الستير وصاحب الغفران)

هذا مأخوذ من قوله ﷺ: «إن الله حيي يستحي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صفراً» وهذا من رحمته وكرمه وكماله وحلمه أنّ العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره

الشديد إليه، حتَّى أنه لا يمكنه أن يعصى إلا أن يتقّوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحـي من هتكه وفضيحته وإحـلال العقوبـة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنـه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضـون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات وشرّهم إليه صاعـد، ولا يزال الملك الـكريم يصعـد إليه منهـم بالمعاصي وكل قبيح. ويستحيي تعالـى ممـن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمدّ يديه إليه أن يردَّهما صفراً، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالاجابة وهو الحيي الستير يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينـه وبينـه ولا يظهرهـا للناس، وإن من أمقت النـاس إليه من بات عاصياً والله يستره، فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[1]، وهذا كلّه من معنى اسمه (الحليم) الـذي وسـع حلمـه أهـل الكفـر والفسـوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً،

(١) سورة النور الآية ١٩.

فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصرّوا واستمروا في طُغيانهم ولم يُنيبوا، ولهذا قال:

(وهـــو الحليم فلا يعاجـــل عبده
بعقوبـــة ليتـــوب من عصيان)

(وهـو العفـوُّ فعفــوه وســع الورى
لـــولاه غار الأرض بالسكان)

يعني أنّه تعالى (الحليم) الذي له الحلـم الكامـل، (العفوُّ) الذي له العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العـظيمين معصية العــاصين وظلـــم المجــرمين، فإنّ الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوّعة، وحلمه تعالى يقتضي إمهال العـاصين وعـدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصاً إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار والتوبـة والإيمـان والأعمـال الصالحـة، وحلمـه وَسِعَ السماواتِ والأرضَ، فلولا عفوه ما ترك على ظهرها من دابّةٍ، وهو تعالى عفوٌّ يحبُّ العفـوَ عن عبـاده، ويحـب منهم أن يسعوا بالأسباب التـي ينالـون بهـا عفـوه، من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه. ومن كمال عفوه أنّ المُسرِفين على أنفسهم إذا تابوا إليه غفر لهم كلّ جرم

صغير وكبير، وأنّه جعل الاسلام يَجُبُّ ما قبله، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها.

(وهـــو الصبـــور علـــى أذى أعدائه
شتمـــوه، بل نسبـــوه للبهتان)
(قالـــوا له ولـــدٌ وليس يعيدنا
شتمـــاً وتكذيبـــاً من الإنسان)
(هـــذا وذاك بسمعـــه وبعلمه
لـــو شاء عاجلهـــم بكل هوان)
(لـــكن يعافيهـــم ويرزقهـــم وهم
يؤذونـــه بالشـــرك والكفران)

وهذه الأبيات في تفسير اسمه (الصبور) مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الصحيح «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم» وبما ثبت أيضاً في الصحيح قال الله تعالى: «كذّبني ابن آدم ولم يكُنْ له ذلك. وشتمني ابن آدم ولـم يكُنْ له ذلك. فأمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأمّا شتمه إيّايّ فقوله إنَّ لي ولداً وأنا الواحد الأحد الفرد الصَّمد الذي لم يلدْ ولم يولَدْ ولـم يكُنْ له كفـواً أحـد» فالله تعالى

يدرّ على عباده الأرزاق المطيع منهم والعاصي، والعصاة لا يزالون في محاربته وتكذيبه وتكذيب رسله والسعي في إطفاء دينه، والله تعالى حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون في الشرور وهو يتابع عليهم النعم، وصبره أكمل صبر لأنّه عن كمال قدرة وكمال غنى عن الخلق وكمال رحمة وإحسان، فتبارك الربُّ الرَّحيم الذي ليس كمثله شيء الصبور الذي يحب الصابرين ويعينهم في كل أمرهم.

(وهو الرقيب على الخواطر واللوا
حظ كيف بالأفعال بالأركان)

(الرقيب) و(الشهيد) مترادفان، وكلاهما يدلُّ على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجليّة والخفيّة، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[1]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[2].

ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبّد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن

(١) سورة النساء الآية ١.

(٢) سورة المجادلة الآية ٦.

حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبّد بمقام الإحسان فعبد الله كأنّه يراه، فإنْ لم يكنْ يراه فإنّه يراه.

(وهـو الحفيظ عليهـم وهـو الـكفيـ

ـل بحفظهم من كل أمر عان

ذكر رحمه الله (للحفيظ) معنيين: أحـدهما أنـه قد حفظ على عباده ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه محيط بجميع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاته عليها بفضله وعدله. والمعنى الثاني من معنيي (الحفيظ) أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عان» أي مشق مكروه.

وحفظه لخلقه نوعان عام وخاص فالعام، حفظه

لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشي إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1] أي هدى كل مخلوق إلى ما قدّر له وقضى له من ضروراته وحاجاته، كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضارّ، وهذا يشترك فيه البرّ والفاجر بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكّل بالآدمي حفظه من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضرّه مما هو بصدد أن يضرّه لولا حفظ الله.

والنوع الثاني حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضرّ إيمانهم أو يزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[2] وهذا عام في دفع جميع ما يضرّهم في دينهم ودنياهم، فعلى حسب ما

---

(١) سورة طه الآية ٥٠.

(٢) سورة الحج الآية ٣٨.

عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك» أي احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعدّيها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله.

(وهو اللطيف بعبده ولعبده
والّلطف في أوصافه نوعان)
(إدراك أسرار الأمور بخبرة
واللطف عند مواقع الإحسان)
(فيريك عزته ويبدي لطفه
والعبد في الغفلات عن ذا الشان)

يعني أن (اللطيف) من أسمائه الحسنى، وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف بعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر. وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فلهذا كان معنى اللطيف أنّه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن والخبايا والخفايا ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور، وما لطف ودقّ من كل شيء.
النوع الثاني لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يُتم عليه إحسانه، ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية فييسّره

لليسرى ويجنبه العسرى، ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم وبالجهاد في سبيله، وكما ذكر الله عن يوسف ﷺ وكيف ترقت به الأحوال ولطف الله به وله بما قدّره عليه من تلك الأحوال التي حصل له في عاقبتها حسن العُقبى في الدنيا والآخرة، وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه ليُنيلهم ما يُحبون، ولهذا قال المصنف « فيريك عزته » أي بامتحانك بما تكره، « ويبدي لطفه » في العواقب الحميدة السارّة، فكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام ولا تتصوّره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية أو رياسة أو سبب من الأسباب المحبوبة، فيصرفه الله عنها ويصرفها عنه رحمةً به لئلا تضرّه في دينه، فيظل العبدُ حزيناً من جهله وعدم معرفته بربِّه، ولو علم ما ذخر له في الغيب وأريد إصلاحه فيه لحمد الله وشكره على ذلك، فإنّ الله بعباده رؤوف رحيم لطيف بأوليائه، وفي الدعاء المأثور « اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك وبارك لنا في قدرك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت ».

فصل

(وهو الرفيق يحبّ أهل الرفق بل
يعطيهم بالرفق فوق أمان)

هذا قد أخذه المؤلف من قولهﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله رفيق يحب أهل الرفق» وإنّ الله يُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف، فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئاً فشيئاً بحسب حكمته ورفقه، مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتي بها شيئاً بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب، فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار، اتباعاً لسنن الله في الكون واتباعاً لنبيهﷺ . فإنّ هذا هديه وطريقه تتيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلى أمر الناس ونهيهم وإرشادهم، فإنّه مضطر إلى الرفق واللين، وكذلك من

آذاه الخلق بالأقوال البشعة وصان لسانه عن مشاتمتهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة والطمأنينة والرزانة والحلم.

(وهو القريب وقربه المختص بـ
ـالداعي وعابده على الإيمان)

من أسمائه (القريب)، وقربه نوعان: قرب عام وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. وقرب خاص بالداعين والعابدين المحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين. قال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(1)

(وهو المجيب يقول من يدعو أجبـ
ـه أنا المجيب لكل من ناداني)

(وهو المجيب لدعوة المضطر إذ
يدعوه في سر وفي إعلان)

---

(1) سورة البقرة الآية ١٨٦.

من أسمائه (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين، وإجابته نوعان: إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عباده أو دعاء مسألة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1]. فدعاء المسألة أن يقول العبد اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا، فهذا يقع من البرّ والفاجر، ويستجيب الله فيه لكل من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته. وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبر والفاجر، ولا يدل بمجرده على حسن حال الداعي الذي أُجيبت دعوته إنْ لم يقترن بذلك ما يدلّ عليه وعلى صدقه وتعيّن الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم فيُجيبهم الله، فإنّه يدلّ على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوّته وآيات صدقه، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات، فإنّه من أدلة كراماتهم على الله. وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدّة وكربة عظيمة، فإنّ الله يُجيب دعوته، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ

---

(١) سورة غافر الآية ٦٠.

﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[1]، وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلّقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الأجابة طول السفر والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة.

(وهــو الجــواد فجــوده عمّ الوجو
د جميعــه بالفضــل والإحسان)
(وهــو الجــواد فلا يخيب سائلاً
ولــو انّــه من أمّــة الكفران)

يعني أنّه تعالى (الجواد) المطلق الـذي عمّ بجـوده جميع الكائنات وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من برٍّ وفاجرٍ ومسلمٍ وكافرٍ، فمن سأل الله أعطاه سؤله وأناله ما طلب فإنّه البرّ الرحيم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾[2]. ومن جوده الواسع ما

---

(١) سورة النمل الآية ٦٢.
(٢) سورة النحل الآية ٥٣.

أعـدّه لأوليائـه في دار النعيم ممـا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(وهـو المغيث لكل مخلوقاته
وكذا يُجيب إغاثـة اللهفان)

(فالمغيث) يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المُغيث لجميع المخلوقات عند ما تتعسّر أمورها وتقع في الشدائد والكربات: يُطعم جائعهم ويكسو عاريهم ويخلص مكروبهم ويُنزّل الغيث عليهم في وقت الضرورة والحاجة، وكذلك يُجيب إغاثة اللهفان أي دعاء من دعاه في حالة اللهف والشدة والاضطرار، فمن استغاثه أغاثه. وفي الكتاب والسنّة من ذكر تفريجه للكربات وإزالته الشدائد وتيسيره للعسير شيء كثير جداً معروف.

فصل

(وهــو الــودود يُحبُّهــم ويُحبُّه
أحبـابــه والفضــل للمنــان)

(وهـو الـذي جعـل المحبّـة في قلـ
ـوبهــم وجازاهــم بحــبٍّ ثان)

(هــذا هو الإحســان حقــاً لا معا
وضـــة ولا لتوقــع الشكران)

(لـكن يحب شكورهـم وشكورهم
لا لاحتياج منــه للشكران)

(وهــو الشــكور فلن يضيع سعيهم
لــكن يضاعفــه بلا حسبان)

(مــا للعبــاد عليه حق واجب
هــو أوجــبَ الأجـر العـظيم الشان)

(كلا ولا عمــل لديه ضائع
إن كان بالإخــلاص والإحسان)

(إن عُذبوا فبعدله أو نعموا
فبفضله والحمد للمنَّانِ)

هذه الأبيات في تفسير (الودود الشكور) فالودود هو المحب المحبوب بمعنى وادّ مودود، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم بل لا شيء أحب إليهم منه، ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخرى، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلّقاتها، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة كل محبة ويتعيّن أن تكون بقية المحابّ تبعاً لها.

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله. ومحبة العبد لربّه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لمّا أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبّب، ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل يُنميها ويُقويها حتى

وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاءون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والانس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محباً لربه، ومحبة بعدها شكراً من الله على محبة صار بها من أصفيائه المخلصين.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبّة ربه التي هي أعظم المطالب، الإكثار من ذكره والثناء عليه، وكثرة الانابة إليه، وقوة التوكّل عليه، والتقرب إليه بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبيﷺ ظاهراً وباطناً كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1].

ومن أسمائه تعالى (الشَّاكر الشَّكورُ) الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة، فإن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، وقد أخبر في كتابه وسنّة نبيّه بمضاعفة الحسنات الواحدة بعشر إلى سبعمائة

(١) سورة آل عمران الآية ٣١.

إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعينه ما يتحمل المتحمّلون لأجله ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئاً لأجله عوّضه خيراً منه، وهو الذي وفّق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم على ذلك وأعطاهم من كراماته، ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه، وإنّما هو الذي أوجبه على نفسه جوداً منه وكرماً، ولهذا قال المصنِّف:

(ما للعباد عليه حق واجب
هو أوجب الأجر العظيم الشان)

وهذا القيد الذي قيّده المصنِّف أحسن من إطلاق من قال:

(ما للعباد عليه حق واجب
كلا ولا سعي لديه ضائع)

وكذلك تقييد المؤلف للسعي بقوله:

(كلا ولا سعي لديه ضائع
إن كان بالإخلاص والإحسان)

أي جامعاً للإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول،

وبذلك يكون العمل صالحاً كما قال في موضع آخر:

(وقيام دين الله بالإخلاص
والإحسان إنهما له أصلان)

فما أصاب العباد من النعم ودفع النقم، فإنّه من الله تعالى فضلاً منه وكرماً، وإن نعّمهم فبفضله وإحسانه، وإن عذبهم فبعدله وحكمته، وهو المحمود على جميع ذلك.

فصل

(وهــو الغفــور فلــو أتــى بقرابها
مــن غير شرك بل من العصيان)
(لاقــاه بالغفــران ملء قرابها
سبحانــه هو واســع الإحسان)
(وكذلك التــوّاب من أوصافه
والتــوب في أوصافــه نوعان)
(إذْنٌ بتوبــة عبــده وقبولها
بعــد المتــاب بمنــة المنان)

فهـو تعالـى (الغفـور التـوّاب) الـذي لم يزل يغفـر الذنوب ويتوب على كل من يتوب ففي الحديث: « إنّ الله يقول يا بن آدم إنّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[1] وقد فتح الله

(١) سورة النجم الآية ٣٢.

الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة والاستغفار والإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى عباد الله والعفو عنهم وقوة الطمع في فضل الله وحسن الظن بالله وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته.

وتوبته على عبده نوعان: أحدهما أنه يُوقع في قلب عبده التوبة إليه والانابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الاقلاع عن المعاصي والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها واستبدالها بعمل صالح. والثاني توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها، فإن التوبة النصوح تجبّ ما قبلها.

فصل

(وهــو الإلــه السيد الصمــد الذي
صمــدت إليه الخلــق بالاذعان)
(الكامـل الأوصــاف من كل الوجو
ه كمالــه ما فيه من نقصان)

هذا معنى اسمه (الصمـد) المعنـى الجامـع الـذي يدخل فيه كل ما فسّر به هذا الاسم الكريم، فهو الصمد الذي تصمد إليه أي تقصـده جميع المخلوقـات بالـذلّ والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسره، وهو الذي قد كمـل في علمـه وحكمتـه وحلمـه وقدرتـه وعظمتـه ورحمته وسائر أوصافه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات.

(وكذلك القهّــار من أوصافه
فالخلــق مقهــورون بالسلطان)

(لـــو لم يكن حيًّا عزيزاً قاهراً
مــا كان من قهــر ومــن سلطان)

(القهّار) وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلّت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا خيراً ولا شرًّا. ثم ذكر المصنف أنَّ قهره مستلزم لحياته وعزّته وقدرته فلا يتمّ قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزّته واقتداره.

(وكذلك الجبــار من أوصافه
والجبــر في أوصافــه نوعان)
(جبـر الضعيف وكل قلـب قد غدا
ذا كســرة فالجبــر منــه دان)
(والثانـي جبـر القهــر بالعــزّ الذي
لا ينبغــي لســواه من إنسان)
(ولــه مسمّــى ثالــث وهــو العلـ
ـوّ فليس يدنــو منــه من إنسان)
(مــن قولهــم جبــارة للنخلــة الـ
ـعُليَا التــي فاتــت لكل بنان)

يعني أن للجبّار من أسمائه الحسنى ثلاثة معان كلها داخلة باسمه (الجبّار) فهو الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير ويُغني الفقير وييسّر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر ويعيضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها، ويجبر جبراً خاصاً قُلُوبَ الخَاضِعِينَ لعظمته وجلاله، وقلوب المحبّين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الايمانية، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب وإذا دعا الداعي، فقال: «اللهم أجبرني» فإنّه يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع جميع المكاره عنه.

والمعنى الثاني أنه القهّار لكل شيء، الذي دان له كلُّ شيء، وخضع له كلُّ شيء.

والمعنى الثالث أنَّهُ العليّ على كل شيء.

فصار الجبّار مُتَضمناً لمعنى الرؤوف القهّار العليّ.

وقد يُرَادُ به معنى رابع وهو المتكبّر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه.

(وهو الحسيب حماية وكفاية
والحسْب كافي العبد كل أوان)

(فالحسيب) هو الكافي للعباد جميع ما أهمّهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار. والحسيب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتّقي المتوكّل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه. والحسيبَ أيضاً هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشرٍّ ويحاسبهم، إنْ خيراً فخير وإنْ شرًّا فشر. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] أي كافيك وكافي أتباعك. فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهراً وباطناً وقيامه بعبودية الله تعالى.

(وهو الرشيد فقوله وفعاله
رشد وربك مرشد الحيران)
(وكلاهما حق فهذا وصفه
والفعل للارشاد ذاك الثاني)

يعني أن (الرشيد) هو الذي قوله رشد وفعله كله رشد، وهو مرشد الحيران الضّال فيهديه إلى الصراط المستقيم بياناً وتعليماً وتوفيقاً، فالرشد الدّال عليه اسم الرشيد وصفه تعالى، والإرشاد لعباده فأقواله القدرية التي يُوجد بها الأشياء ويُدبر بها الأمور كلُّها حقٌّ لاشتمالها

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

على الحكمة والحسن والاتقان، وأقواله الشرعية الدينية هي أقواله التي تكلّم بها في كتبه، وعلى ألسنة رسله المشتملة على الصدق التام في الاخبار والعدل الكامل في الأمر والنهي، فإنّه لا أصدق من الله قيلاً ولا أحسن منه حديثاً ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[1] في الأمر والنهي، وهي أعظم وأجلّ ما يرشد بها العباد، بل لا حصول إلى الرشاد بغيرها، فمن ابتغى الهُدى من غيرها أضلّه الله، ومن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي وهو بيان الحقائق والأصول والفروع والمصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بها الرشد العملي فإنّها تُزكي النفوس وتطهر القلوب وتدعو إلى أصلح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحثّ على كُل جميل، وترهب عن كل ذميم رذيل، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو ضال. ولم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى المطلق، فكم هدى بفضله ضالاً وأرشد حائراً، وخصوصاً مَنْ تعلّق به وطلب منه الهدى من صميم قلبه، وعلم أنّه المنفرد بالهداية.

(١) سورة الأنعام الآية ١١٥.

١والعــدل من أوصافــه في فعله
ومقالــه والحــكم في الميزان)

(فعلــى الصــراط المســتقيم إلهنا
قــولاً وفعــلاً ذاك في القرآن)

يعني أنَّ الله هو (الحكم العدل) في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط. وهذا معنى قولـه: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] فإنَّ أقواله صدق وأفعاله دائرة بين العدل والفضل، فهي كلها أفعال رشيدة وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه أحكام عادلة لا ظلم فيها بوجه من الوجوه، وكذلك أحكام الجزاء والثواب والعقاب.

---

(١) سورة هود الآية ٥٦.

فصل

(هـذا ومـن أوصافـه القــدوس ذو
التنــزيه بالتعــظيم للرحمن)
(وهـو السـلام على الحقيقـة سالم
مــن كل تمثيل ومــن نقصان)

هذا تفسير (القدوس السلام) فهو المقدّس المعظم المنزّه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحـد من خلقـه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله. فهذا ضابطما ينزّه عنه: ينزّه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزّه ويعظّم أن يكون له مثيل أو شبيه أو كفو أو سمي أو ندّ أو مضادّ، وينزّه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها. ومن تمـام تنزيهـه عن ذلك إثبـات صفـات الكبـرياء والعظمـة له، فإنّ التنــزيه مرادٌ لغيره ومقصـودٌ به حفـظ كمالـه عن الظنـون السيئـة. كظــنّ الجاهلية الذين يظنــون به ظن السـوء، ظنّ غير ما يليق

بجلاله، وإذا قال العبد مثنياً على ربه: «سبحان الله» او «تقدّس الله» أو «تعالى الله» ونحوها كان مثنياً عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

(والبَرّ في أوصافه سبحانه
هو كثرة الخيرات والإحسان)
(صدرت عن البرّ الذي هو وصفه
فالبر حينئذ له نوعان)
(وصف وفعل فهو برّ محسن
مولى الجميل ودائم الإحسان)
(وكذلك الوهاب من أسمائه
فانظر مواهبه مدى الأزمان)
(أهل السماوات العلى والأرض عن
تلك المواهب ليس ينفكان)

من أسمائه تعالى (البرّ الوهاب) الذي شمل الكائنات بأسرها ببرّه وهباته وكرمه، فهو مولى الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب، وصفه البرّ وآثار هذا الوصف جميع النعم الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبرّه طرفة عين.

وإحسانه عام وخاص: فالعام المذكور في قوله:

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[1] و﴿ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[2]، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[3] وهذا يشترك فيه البرُّ والفاجر وأهل السماء وأهل الأرض والمكلفون وغيرهم، والخاص رحمته ونعمه على المتقين حيث قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾[4] الآية. وقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5] وفي دعاء سليمان: ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[6] وهذه الرحمة الخاصة التي يطلبها الأنبياء وأتباعهم، تقتضي التوفيق للإيمان والعلم والعمل وصلاح الأحوال كلها والسعادة الأبدية والفلاح والنجاح، وهي المقصود الأعظم لخواصّ الخلق.

(وكذلك الفتاح من أسمائه
والفتح في أوصافه أمران)

---

(١) سورة غافر الآية ٧.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(٣) سورة النحل الآية ٥٣.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(٥) سورة الأعراف الآية ٥٦.
(٦) سورة النمل الآية ١٩.

(فتـح بحـكم وهـو شرع إلهنا
والفتـح بالأقـدار فتـح ثان)
(والـرب فتـاح بذين كليهما
عـدلاً وإحسانـاً من الرحمن)

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وَفَتْحُه تعالـى قسمان: أحدهما فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي، والثاني الفتاح بحكمه القدري. ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسلـه جميعَ ما يحتاجـه المكلفـون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم. وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائـه ومخالفيهـم وبين أوليائـه وأعدائـه بإكرام الأنبياء واتّباعهـم ونجاتهـم، وبإهانـة أعدائهـم وعقوباتهـم. وكذلك فتحـه يوم القيامـة وحكمـه بين الخلائـق حين يوفّـى كل عامـل ما عملـه. وأمّـا فتحـه القدري فهو ما يقدّره على عباده من خير وشر ونفع وضرّ وعطاء ومنع، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] فالربّ تعالى هو الفتاح العليم الـذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتـح علـى

(١) سورة فاطر الآية ٢.

أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

(وكذلك الـرزَّاق من أسمائه
والـرزق من أفعالـه نوعان)

(رزق علـى يد عبـده ورسوله
نوعـان أيضـاً ذان معروفان)

(رزق القلوب العلـم والإيمـان والـ
رزق المعـدّ لهـذه الأبدان)

(هـذا هو الـرزق الحـلال وربنا
رزّاقـه والفضـل للمنـان)

(والثاني سوق القوت للأعضـاء في
تلك المجـاري سوقـه بوزان)

(هـذا يكون من الحـلال كمـا يكو
ن من الحـرام كلاهمـا رزقان)

(والـرب رازقـه بهـذا الاعتبـ
ـار وليس بالإطـلاق دون بيان)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾[1] ، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[2] ورزقه لعباده نوعـان: عام وخاص. فالعـام إيصالـه لجميع الخليقـة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها، فسهّل لها الأرزاق، ودبّرها

(١) سورة الذاريات الآية ٥٨.

(٢) سورة هود الآية ٦.

في أجسامها، وساقَ إلى كل عضوٍ صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبرِّ والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضاً من وجه آخر في حق المكلفين، فإنّه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقاً ونعمة بهذا الاعتبار، ويقال «رزقه الله» سواء ارتزق من حلال أو حرام وهو مطلق الرزق.

وأما الرزق المطلق فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد الرسول ﷺ: رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإنّ القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أنْ تكون عالمة بالحق مريدة له متألّهة لله متعبّدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها. ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإنّ الرزق الذي خصّ به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى «اللهم ارزقني» أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيّ الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

فصل

(هـذا ومن أوصافــه القيوم والـ
ـقيوم في أوصافــه أمران)
(إحداهمــا القيوم قام بنفسه
والــكون قام به همــا الأمران)
(فــالأول استغنــاؤه عن غيره
والفقــر من كل إليه الثاني)
(والــوصف بالقيوم ذو شأن كذا
موصوفــه أيضــاً عظيم الشأن)
(والحــيُّ يتلــوه فأوصــاف الكما
ل همــا لأفــق سمائهــا قطبان)
(فالحــيُّ والقيوم لن تتخلف الأ
وصــاف أصــلاً عنهمــا ببيان).

هذا تفسير (الحي القيوم) وجمعهما في غاية المناسبة كما جمعهما الله في عدة مواضع من كتابه كقوله: ﴿ ٱللَّهُ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1] وذلك أنّهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزّة والقدرة والإرادة والعظمة والكبرياء وغيرها من صفات الذات المقدسة، والقيوم هو كامل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقامت به الأرض والسماوات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدَّها وأعدَّها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغنيّ عنها من كل وجه وهي التي افتقرت إليه من كل وجه، فالحيّ والقيوم من له صفة كل كمال وهو الفعّال لما يريد.

(هو قابض هو باسط هو خافض
هو رافع بالعدل والإحسان)
(وهو المعزّ لأهل طاعته وذا
عزٌّ حقيقي بلا بطلان)
(وهو المذلّ لمن يشاء بذلة الـ
ـدارين ذل شقا وذل هوان)
(هو مانعٌ معطٍ فهذا فضله
والمنع عين العدل للمنان)

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(يعطي برحمته ويمنع من يشا
ء بحكمة والله ذو سلطان)

هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا ينبغي أن يُثنى على الله بها إلّا كل واحد منها مع الآخر، لأن الكمال المطلق من اجتماع الوصفين، فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، والباسط للأرزاق والرحمة والقلوب. وهو الرافع لأقوام قائمين بالعلم والايمان، الخافض لأعدائه وهو المعزّ لأهل طاعته، وهذا عز حقيقي، فإن المطيع لله عزيز وإنْ كان فقيراً ليس له أعوان، المذلّ لأهل معصيته وأعدائه ذلاً في الدنيا والآخرة. فالعاصي وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإنْ لم يشعر به لانغماسه في الشهوات فإنّ العز كل العز بطاعة الله والذل بمعصيته ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ ﴾[1]. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[2]، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3]. وهو تعالى المانع المعطي فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى. وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإنّ له الحكمة في

(١) سورة الحج الآية ١٨.
(٢) سورة فاطر الآية ١٠.
(٣) سورة المنافقون الآية ٨.

خفض من يخفضه ويذلّه ويحرمه، ولا حجّة لأحد على الله، كما له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه هو المنفرد بهذه الأمور وكلها جارية تحت أقداره، فإنّ الله جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسباباً، ولضد ذلك أسباباً من قام بها ترتبت عليه مسبباتها، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسّرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا يُوجب للعبد القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربّه في حصول ما يحب، ويجتهد في فعل الأسباب النافعة فإنّها محل حكمة الله.

فصل

(والنـــور من أسمائـــه أيضـــاً ومن
أوصافـــه سبحـــان ذي البرهان)
(قـال ابـن مسعـود كلامـــاً قد حكا
ه الدارمـــي عنـــه بلا نكران)
(مـــا عنـــده ليل يكون ولا نهـ
ـار قلـت تحـت الفلك يوجـد ذان)
(نـور السمـــاوات العلـــى من نوره
والأرض كيف النجـــم والقمران)
(من نور وجه الـربّ جلّ جلاله
وكذا حكاه الحافـظ الطبراني)
(فيه استنـار العـرش والكرسـيُّ مع
سبـع الطبـاق وسائـر الأكوان)
(وكتابـــه نور كذلك شرعه
نـــور كذا المبعـوث بالقرآن)

(وكذلك الإيمــان في قلــب الفتى
نــور علــى نور مع القرآن)
(وحجابــه نور فلــو كشف الحجـ
ـاب لأحــرق السبحــات للأكوان)
(وإذا أتــى للفصــل يشــرق نوره
فــي الأرض يوم قيامــة الأبدان)
(وكذاك دار الــرب جنــات العلى
نــور تلألأ ليس ذا بطلان)
(والنــور ذو نوعين مخلــوق ووصـ
ـف ما همــا والله متحدان)
(وكذلك المخلوق ذو نوعين محســ
ــوس ومعقــول همــا شيئان)
(إحــذر تزلً فتحــت رجلك هوةً
كم قد هوى فيهــا علــى الأزمان)
(مــن عابــد بالجهــل زلّــت رجله
فهوى إلــى قعــر الحضيض الداني)
(لاحــت له أنــوار آثــار العبا
دة ظنّهــا الأنــوار للرحمن)
(فأتــى بكل مصيبــة وبلية
ـمــا شئــت من شطــح ومــن هذيان)

(وكذا الحلولـي الـذي هو خدنه .
مـن ههنـا حقـاً همـا أخوان)
(ويقابـل الـرجلين ذو التعـطيل والـ
ـحجـب الكثيفـة ما همـا سيان)
(ذا في كثافـة طبعـه وظلامه
وبظلمـة التعـطيل هذا الثاني)
(والنـور محجـوب فلا هذا ولا
هـذا له من ظلمـة يريان)

بسط المصنف الكلام على هذا الاسم الكريم لشدّة الحاجة إلى معرفته ومعرفة متعلقاته ووقوع الاشتباه الكثير في ذلك. وحاصل ذلك أن من أسمائه جلّ جلاله ومن أوصافه (النور) الذي هو وصفه العظيم، فإنّه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لاحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها، فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان.

والنور نوعان: حسيٌ كهذه العوالم التي لم يحصل لها نور إلا من نوره، ونور معنوي يحصل في القلوب والأرواح بما جاء به محمدﷺ من كتاب الله وسنة نبيّه.

فعلم الكتاب والسُّنّة والعمل بهما ينير القلوب والأسماع والأبصار، ويكون نوراً للعبد في الدنيا والآخرة ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(١) لما ذكر أنّه نور السماوات والأرض وسمّى الله كتابه نوراً ورسوله نوراً ووحيه نوراً.

ثم إنّ المؤلف حذر من اغترار من اغترّ من أهل التصوف، الذين لم يفرّقوا بين نور الصفات وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنّهم لمّا تألهوا وتعبّدوا من غير فرقان وعلم كامل، ولاحت أنوار التعبّد في قلوبهم، لأنّ العبادات لها أنوار في القلوب، فظنّوا هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال. وأمّا أهل العلم والإيمان والفرقان فإنّهم يفرّقون بين نور الذات والصفات، وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها ولا يحلّ بمخلوق، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً. وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها. والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار الله قلبه، فانكشفت له

(١) سورة النور الآية ٣٥.

حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرّق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علماً وعملاً، وانكشفت عنه الشبهات القادحة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة، وكان قلبه نوراً وكلامه نوراً وعمله نوراً، والنور محيط به من جهاته. والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها والله الموفق وحده.

فصل

(وهو المقـدّم والمؤخّـر ذانـك الصـ
ـفتـان للأفعـال تابعتان)
(وهما صفات الـذات أيضـاً إذ هما
بالـذات لا بالغير قائمتان)
(ولـذاك قد غلـط المقسّـم حين ظـ
ـن صفاتـه نوعـان مختلفان)
(إن لم يُرد هذا ولـكن قد أرا
د قيامهـا بالفعـل ذي الامكان)
(والفعـل والمفعـول شيء واحد
عنـد المقسّـم ما همـا شيئان)
(فلـذاك وصف الفعـل ليس لديـ
ـه إلاّ نسبـة عدمية ببيان)
(فجميع أسمـاء الفعـال لديه ليـ
ـست قط ثابتـة ذوات معان)

(موجــودة لكن أمــور كلها
نســب ترى عدمية الوجدان)
(هــذا هو التعــطيل للأفعــال كالـ
ـتعــطيل للأوصــاف بالميزان)
(فالحق أنّ الوصف ليس بمورد التـ
ـقسيم هذا مقتضــى البرهان)
(بــل مورد التقسيم ما قد قام بالـ
ـذات التــي للواحــد الرحمن)
(فهمـا إذاً نوعــان. أوصــاف وأفـ
ـعــال فهــذي قسمــة التبيان)
(فالــوصف بالأفعــال يستدعــي قيا
م الفعــل بالموصــوف بالبرهان)
(كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما
إن بين ذينــك قط من فرقان)
(ومـن العجائــب أنهــم ردّوا على
مــن أثبــت الأسمــاء دون معان)
(قامـت بمـن هي وصفــه هذا محا
ل غير معقــول لذي الأذهان)
(وأتوا إلـى الأوصـاف باسـم الفعل
قالــوا لم تقــم بالواحــد الديان)

(فانظر إليهـم أبطلـوا الأصـل الذي
ردّوا به أقوالهـم بوزان)
(إن كان هذا ممكنـاً فكذاك قو
ل خصومـكم أيضـاً فذو إمكان)
(والـوصف بالتقـديم والتـأخير كو
نـيٌ ودينـيٌ همـا نوعان)
(وكلاهمـا أمـر حقيقـي ونسـ
ـبي ولا يخفـى علـى الأذهان)
(والله قدَّر ذاك أجمعـه بإحـ
ـكام وإتقـان من الرحمن)

فصل

(هــذا ومــن أسمائــه ما ليس يفـ
ـرد بل يقــال إذا أتــى بقران)
(وهــي التــي تدعــى بمزدوجاتها
إفرادهــا خطــر علــى الإنسان)
(إذ ذاك موهــم نوع نقص جلّ ر
بّ العرش عن عيب وعن نقصان)
(كالمانـع المعطي وكالضــار الذي
هــو نافــع وكمالــه الأمران)
(ونظير هذا القـابض المقـرون باسـ
ـم الباســط اللفظــان مقترنان)
(وكذا المعــزّ مع المــذلّ وخافض
مــع رافــع لفظــان مزدوجان)
(وحديث إفـراد اســم منتقـم فمو
قــوف كمــا قد قال ذو العرفان)

(مــا جاء في القــرآن غير مقيد
بالمجــرمين وجــا بذو نوعان)

ذكر المصنف هذه الأبيات في تفسير اسمه (المقدّم المؤخّر)، وهما كما تقدم من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده على الله إلا مقروناً بالآخر، فإن الكمال من اجتماعهما، فهـو تعالـى المقـدّم لمـن شاء والمؤخّر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم يكون كونيًّا كتقديم بعض المخلوقات على بعض وتأخير بعضها على بعض، وكتقديم الأسباب على مسبباتها والشروط على مشروطاتها. وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقدير بحر لا ساحـل له. ويكون شرعياً كما فضل الأنبياء على الخلق وفضل بعضهم على بعض، وفضل بعض عبـاده علـى بعض، وقدمهـم في العلم والإيمان والعمل والأخلاق وسائر الأوصاف، وأخر من أخر منهم بشـيء من ذلك وكل هذا تبـع لحكمتـه. وهـذان الوصفـان ومـا أشبههمـا من الصفـات الـذاتية لكونهما قائمين بالله والله متصف بهمـا، ومـن صفـات الأفعال لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتهـا وأفعالها ومعانيها وأوصافهـا، وهـي ناشئـة عن إرادة الله وقدرته. فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباري، وإنّ

صفات الذات متعلقة بالذات، وصفات أفعاله متصفة بها الذات ومتعلقة بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال.

وأمّا تقسيم بعض أهل الكلام الباطل أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله، بل الفعل عندهم عين المفعول، فهذا قول باطل بالكتاب والسنّة والاجماع من السلف، وهو مخالف لما يعقله العقلاء في قلوبهم، فإنّ صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ومتّصف بها من قالها أو عملها، ولا يتصور في العقل مفعول من غير فعل ولا مخلوق من غير خلق، كما لا يتصور أحد اسماً مشتقاً دالاً على غير صفة في المحل المسمّى به. والذي أوجب لهم هذا الغلط الفاحش زعموا أنهم إذا لم يقولوا بهذا اقتضى حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا كل صفة فعلية لله، فأنكروا استواءه على عرشه ونزوله، وأفعاله التي يوجدها شيئاً فشيئاً، وأقواله التي يتكلم بها شيئاً بعد شيء. وهذا التعطيل لأفعاله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين. فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلاً فكذلك التعطيل لصفاته الفعلية باطل.

أما أهل السنّة والجماعة فإنّهم أثبتوا كل ما جاء به الكتاب والسنّة من صفات الله، واعترفوا بها، لا فرق

عندهم بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته وكلها قائمة بالله والله موصوف بها، وهو القول الذي دلّ عليه النقل والعقل. ومن أوصاف الأفعال الأسماء المزدوجة كالمقدّم المؤخّر والضارّ النافع والمعطي المانع ونحوها وتقدمت.

فصل

واعلم أنّ المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب شرحاً جامعاً مختصراً كما تقدّم، وما لم يذكره فإنّه ذكر نظيره من الأسماء الحسنى أو ما يدلّ عليه ويستلزمه، فإنّه لم يذكر (المتين) وهو داخل في (القوي القدير)، ولم يذكر (الأعلى) وهو في معنى (العليّ) كما تقدّم ولم يذكر (الرّحمن الرّحيم الرّؤوف الكريم) وهي في معنى (البرّ الجواد الوهّاب) ولم يذكر (الرّبّ والله والملك والمالك) وقد ذكر في (البَدَائِع) أنَّها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى فقال: الربّ هو القادر الخالق البارىء المصوّر الحي القيوم السميع العليم البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضارّ النافع، الذي يُضلّ من يَشاء ويُهدي من يشاء ويُسعد من يشاء ويُشقي من يشاء ويُعزّ من يشاء ويُذل من يَشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته

التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى. وأما (المَلِك) فهو الآمر الناهي المعزّ المذلّ الذي يصرِّف أمور عباده كما يحب ويقلّبهم كما يشاء، وله من معنى المَلِك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبّار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعزّ المذلّ العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك. وأما (الإله) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فقد دخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، ولهذا كان القول الصحيح أنّ (الله) أصله (الإله) وأن اسم (الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلى والله أعلم.

فصل

(ودلالــة الأسمــاء أنــواع ثلا
ث كلهــا معلومــة ببيان)
(دلّــت مطابقــة كذاك تضمناً
وكذا التزامــاً واضــح البرهان)
(أمــا مطابقــة الدلالــة فهــي أنَّ
الاســم يفهــم منــه مفهومان)
(ذات الإلــه وذلك الــوصف الذي
يشتــق منــه الاســم بالميزان)
(لــكن دلالتــه علــى إحداهما
بتضمــن فافهمــه فهــم بيان)
(وكذا دلالتــه علــى الصفــة التي
مــا اشتــق منهــا فالتــزام دان)
(وإذا أردت لذا مثــالاً بيّناً
فمثــال ذلك لفظــة الرحمن)

(ذات الإلـه ورحمـة مدلولها
فهمـا لهـذا اللفـظ مدلولان)
(إحداهما بعض لذا الموضـوع فهـ
ـي تضمـن ذا واضـح التبيان)
(لـكن وصف الحـي لازم ذلك الـ
ـمعنـى لزوم العلـم للرحمن)
(فلـذا دلالتـه عليه بالتزا
م بيّن والحـق ذو تبيان)

هـذه قاعـدة ذكرهـا المصـنف نافعـة في الأسمـاء الحسنـى، وذلك أن الدلالـة نوعـان: لفـظية ومعنـوية عقلية، فإن أعطيت اللفظ جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة، لأنّ اللفظ طَابَقَ المعنى من غير زيادة وَلاَ نقص. وإن أعطيتـه بعض المعنـى فتسمـى دلالـة تضمن، لأن المعنى المذكور بعض اللفـظ وداخـل في ضمنه. وأما الدلالة المعنوية العقلية فهي خاصة العقل والفكر الصحيح، لأنّ اللفظ بمجرده لا يدلّ عليها، وإنّما ينظر العبد ويتأمل في المعاني اللازمة لذلك اللفظ الذي لا يتمّ معناها بدونه وما يشترط له من الشروط، وهـذا يجري في جميع الأسماء الحسنى، كل واحد منها يدل على الـذات وتلك الصفـة دلالـة مطابقـة، ويدل على

الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ويدل على الصفة الأخرى اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام. مثال ذلك (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة، ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامّة ونحوها دلالة التزام، لأنّه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته للمرحوم وعلمه به وبحاجته، وكذلك ما تقدم من استلزام (الملك) جميع صفات الملك الكامل، واستلزام (الربّ) لصفات الربوبية، و(الله) لصفات الألوهية وهي صفات الكمال كلها، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد. فهذه قاعدة نافعة.

ومن القواعد المتعلقة بأسمائه الحسنى ما ذكره المصنف بقوله:

(أسماؤه أوصاف مدح كلها
مشتقة قد حملت لمعان)

(إيّاك والإلحاد فيها إنّه
كفر معاذ الله من كفران)

(وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإ
شراك والتعطيل والنكران)
(فالملحدون إذن ثلاث طوائف
فعليهم غضب من الرحمن)

يعني أن أسماءه الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالّة على معانيها، وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء، ولذلك كانت حسنى فلو كانت أعلاماً محضة لم تكن حسنى، ولهذا إن كان الاسم منقسماً إلى حمد ومدح وغيره لم يدخل بمطلقه بأسماء الله كالمريد والصانع والفاعل ونحوها فهذه ليست من الأسماء الحسنى، فصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف بأكمل الصفات، وله أيضاً من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمّه.

والواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنّة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفى من معانيها صفة، ولا تشبّه بصفات المخلوقين، ولهذا توعّد الله الملحدين في أسمائه. إمّا أن يُسمّوا بها بعض المخلوقات كتسمية آلهتهم «اللات» من (الإله) و «العزى» من (العزيز) و «مناة» من (المنّان)، وإمّا أن تمثل بصفات المخلوقين، وإمّا أن تنفى وتعطل كما يفعل

الجهمية ومن تبعهم من كل معطل لصفات الله أو بعضها. وأعظم أنواع الملحدين فيها ملاحدة الاتحادية الذين سمّوا بأسمائه وصفاته كل موجود في الوجود، وهذا تعطيل لذاته وصفاته وأفعاله. ولنقتصر في الاشارة إلى الإلحاد بأسمائه وصفاته على ما ذكرنا، مع أنّ المؤلف بسّط الكلام، لكنّنا أتينا بالجمل الكلية فيها.

فصل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

(هـذا وثانـي نوعـي التـوحيد تو
حيد العبـادة منـك للرحمن)
(أنْ لا تكون لغيره عبـداً ولا
تعبـد بغير شريعـة الإيمان)
(فتقـوم بالإسـلام والإيمـان والإ
حسـان في سرٍّ وفـي إعلان)
(والصدق والاخـلاص ركنـا ذلك
التـوحيد كالـركنين للبنيان)
(وحقيقـة الاخـلاص توحيد المر
اد فلا يزاحمـه مراد ثان)
(لـكن مراد العبـد يبقـى واحداً
مـا فيه تفـريق لدى الإنسان)

(إنْ كان ربُّك واحداً سبحانه
فاخصصه بالتوحيد مع إحسان)
(أو كان ربك واحداً أنشاك لم
يشركه إذ أنشاك ربٌ ثان)
(فكذاك أيضاً وحده فاعبده لا
تعبد سواه يا أخا العرفان)
(والصدق توحيد الإرادة وهو بذ
ل الجهد لا كسلاً ولا متوان)
(والسنّة المثلى لسالكها فتو
حيد الطريق الأعظم السلطاني)
(فلواحدٍ كن واحداً في واحد
أعني سبيل الحق والإيمان)
(هذي ثلاث مسعدات للذي
قد نالها والفضل للمنان)
(فإذا هي اجتمعت لنفس حرّة
بلغت من العلياء كل مكان)

وهذا النوع زبدة رسالة الله لرسله، فكل نبي يبعثه الله يدعو قومه يقول ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩.

ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1] وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحقّقه، والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له. فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقّق به، ويعرف حدّه وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته، وما يقوّيه وينمّيه، وما ينقضه أو ينقصه، وشروطه ومكمّلاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنّه الأصل الأصيل الذي لا تصحّ الأصول إلاّ به، فكيف بالفروع.

فأمّا حدُّه وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم العبد ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة. وأنّ صفات الإلهية ومعانيها ليست موجودة بأحدٍ من المخلوقات، ولا يستحقّها إلا الله تعالى.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقاً أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، والأمر بالمعروف

---

(١) سورة النحل الآية ٣٦.

والنهي عن المنكر وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه. ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه. ويقوم بحقائق الإحسان وروح الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، مخلصاً ذلك كله لله، لا يقصد به غرضاً من الأغراض غير رضا ربّه وطلب ثوابه، متابعاً في ذلك رسول الله ﷺ، فعقيدته ما دلّ عليه الكتاب والسنّة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبيه ﷺ في هديه وسمته وكل أحواله.

ولهذا كمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء (توحيد الإخلاص لله وحده) فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده. و (توحيد الصدق) وهو توحّد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربّه وكمال عبوديته. و(توحيد الطريق) وهو المتابعة. فلهذا قال «فلواحد» وهو الله «كن واحداً» في عزمك وصدقك وإرادتك «في واحد» أي متابعة الرسول. ولهذا فسّره بقوله «أعني طريق الحق والإيمان». فمن اجتمعت له الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص من كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الثلاثة. وإذا كان الله تعالى هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة لم يشاركه في ذلك

مشارك، فعليك أن لا تتأله ولا تتعبّد لغيره، وعليك أن تخصّه بالتوحيد والسؤال واللجا والفزع في أمورك كلها.

وهذا من أعظم الأدلّة على توحيد الإلهية، وهو الاستدلال بربوبية الله للعبد بل وللخلق كلهم والتفرّد بتدبيرهم وإسداء النعم عليهم، على أنّه هو الإله حقاً الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئاً من العبودية غيره. ومن الأدلّة على ذلك معرفة تفرّد الرب بالكمال المطلق، وأنّ له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها، كل وصف حميد فيها فإنّه من الله تعالى، ليس بها وليس منها. وهذا من أعظم البراهين على أنّه هو المخصوص بالتألّه والعبودية. وكذلك هو المنفرد بالنعم كلها، وهو وحده المعطي المانع، الضارّ النافع، الخافض الرافع، وسواه فقير إلى ربه في كل حال، لا يستغنى عنه طرفة عين. فمن أعظم الباطل وأكبر المنكرات أن يجعل شيئاً منه شريكاً لله في شيء من خصائصه، وشيء من حقوقه على عباده، فإنّ حقّه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، لا نبيًا مرسلاً ولا ملكاً مقرباً.

وهذا النوع من التوحيد متضمن للنوع الأول الذي هو توحيد الأسماء والصفات الداخل فيها توحيد الربوبية، لأن الله هو الذي له صفة الإلهية وهي صفات

الكمال كلها. ولهـذا كلمـا قوي إيمـان العبـد ومعرفتـه بأسماء الله وصفاتـه قوي توحيده وتـم إيمانـه، وأمّـا ما يناقض هذا التوحيد فقد ذكره المصنف بقوله:

(والشـرك فاحـــذره فشـــرك ظاهر
ذا القســم ليس بقابــل الغفران)
(وهــو اتخــاذ النـدّ للرحمــن أيّـ
ـاً كان من حجــر ومــن إنسان)
(يدعــوه أو يرجــوه ثم يخافه
ويحبـه كمحبـة الـرحمـن)

يعني أن الشرك المناقض لهذا التوحيد نوعان: جليٌّ ظاهر مخرج من دائرة الإسلام، وهو الشرك الأكبر. وهذا النوع لا يقبل الغفران، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1]، وتفسيره أن يتخذ العبدُ لله ندّاً يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، أو يدعوه أو يصرف له نوعاً من العبادة الظاهرة والباطنة. وفي هذا المقام لا فرق بين الملائكة والأنبياء والأولياء والصـالحين والطـالحين والأشجـار والأحجار وغيرهـا، فمـن صرف لشـيء منهـا نوعـاً من

(١) سورة النساء الآية ٤٨.

العبادة فهو مشرك كافر قد سوّاها بربه في هذا الحق الذي يختص به، فإنّ العبودية لا حقّ فيها لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، بل هم مفتقرون غاية الافتقار إلى تألّههم وتعبّدهم لله. وأمّا الشرك الأصغر فهو كل وسيلة يتوسّل بها ويتطرّق إلى الشرك الأكبر، بشرط أن لا يبلغ مرتبة العبادة، كالحلف بغير الله وكالرياء والتصنع للمخلوقين ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك، فلا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأً من الشرك كله جليّه وخفيه ظاهره وباطنه. الأقوال منه والأفعال وتكون أعماله كلّها خالصة لله متبعاً فيها سُنّة رسول الله ﷺ.

والعبادة هي كلّ ما يحبه الله ويرضاه ممّا شرعه من الأعمال الظاهرة والباطنة، وقد حدّها المؤلف بقوله:

(ليس العبادة غير توحيد المحبّة

مع خضوع القلب والأركان)

يعني أنّ العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التّام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الذلّ والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبّة التامّة التي تتبعها المحابّ كلها، والله أعلم.

وصلَّى الله على محمد وعلى آلـه وصحبه أجمعين وعلى التابعين لهم بإحسانٍ إلـى يوم الـدين والحمـد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تمَّ هذا التعليق المبارك على يد جامعه الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفـر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ثالث ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين. وتم نقله من خط المصنِّف في تسعة عشر من شهر ربيع الآخر سنـة ألف وثلاثمائة وسبع وستين والحمد لله.

فهرست

الموضوع	صفحة

صدر عن دار ابن القيم للنشر والتوزيع

١ - تهذيب موعظة المؤمنين — مخرج ومحقَّق

٢ - فهارس الظلال الدعوية والإيمانية والتربوية — يوسف خاطر

٣ - دليل الطالب المسلم

٤ - أهوال القيامة — عبد الملك الكليب

٥ - مختصر الفتاوى المصرية لابن تيميه — البعلي الحنبلي

٦ - الإلمام بأحاديث الأحكام — ابن دقيق العيد - مخرج ومحقَّق

٧ - رحلة الصديق إلى البيت العتيق — صديق حسن خان

٨ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى — محمد صالح بن عثيمين

يصــدر قـريبـاً

١ - عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة — محمد بن صالح بن عثيمين

٢ - أضرار المعاصي — ابن القيم - محقق ومخرج

٣ - السُّنَّة - مجلدين تحقيق الشيخ الدكتور محمد سعيد القحطاني

الحقّ الواضح المُبين